أضاليل برمق القهوة

بقلم.. زهرة عاطف صبحي / مصر

انطلاقة..

وعند اتباع أضاليلك الفطرية، تعمى عن رؤية ملامحك أيضا، وترضى تذوق رمق قهوتك التي تشبهك، لم لذلك كافح مع جماعتك .

ملحوظة: القصة تتحدث عن مأساة إنسانية في العالم ومعاناِة فئة من البشر، من لديهم أرواح وأجساد تماما مثلنا.

فإن كنت تعاني من مرض العنصرية والطائفية فالقصة غير مناسبة لك.

مقدمة..

(رأيك في نفسك أهمُ بكثير من رأي الاخرين فيك)

- سينيكا

"سيمحى أثركم من الحياة يوما ما".

هذا الصوت المزعج الذي تسمعه كل بزوغ فجر، مع صوت تلك الرصاصة المزعجة التي تعمدت القضاء على أمثالك، وما زالت تخطط للمزيد.

لا تدخل ذلك المقهـــــــى الصغير إلا وجموع الناس تنظر إليك بعيونٍ وحشية مرتعبة، وبعض الهمِس الذي يَصوب نحوك فتتمنـــــى حينها لو تصاب بالطرش.

"كافح مع جماعتك".

هذِه هي الجملة الوحيدة التي ستطلعك على مـــلامح العـــالم، لا ملامحَك الراسخة في عقـــــل أي بشري، ستقودك لتسمع سيمفونية بعض البشر المبعثة للخوف والقلق، ستجعلك تتبع أضاليلك التي لا تعرف نهايتها!

لا تثق برأيِي أحد، ثق برأيك فقط.

أنت معنا، لكنَك لست منا!

هذه هي حقيقة رمق قهوتك اللذيذة التي تعكس حياتك..

" أضاليلك برمق القهوة".

هذا هو خط بدايتك، يمكنَك أن تنتهي منه!

إذا وجدت الحرية، وجد الوطن.

بعض الأضـــاليل تكـــون في الطريق الخاطئ، لكن من الممكن أن تكون في طريقَك الصحيحة، بالنسبة إليك!

المكان: الولايات المتحدة الامريكية.

مدينة فيرغسون

السنة: ١٩٧٠م

وتحت تلك السماء التي تبكي إثر شـــــجار بينها وبين الرعِد الغاضب، وقفت تلك المرأة في منتصِف العقد الثالث بمعطفها الرمادي المتسخ وقبعتها البيضاء التي تغطي رأسها قليَل الشعر.

في إحدى يديها حملت بعض الأكياس التي يوجد بها ما يسد جوعها لتملأ معدتها الخاوية وحقيبة تضع بها ما يثبت أنها إنسانة!

وفي قبضِة يدها الأخرى أمسكت كبسولة لتلك البطِن البارزة.

الدوار هو الشيء الوحيد الذي شعرت به في ذاك الحين، طرحت تلك الأكياس والحقيبة أرضًا، على الأرض المبتلة تمامًا، أمسكت رأسها وبدأت تتنَفس بسرعة.

لم تعد قدمها قادرة على حملها،لذلك اضطرْت إلى إراحة تلك القدِم المتشقة والجلوس على قارعة الطريق بجانب أكياسها.

مَر بجانبها فتى صغير أشقر مـــع والدته، نظر الفتى إلى تلك المرأة، ثم التفت إلى والدته وطلب منها مساعدة تلك المرأة المسكينة، رفضت الوالدة بحجة أن المرأة سوداء، ومن الممكن أن تكون مجرمة أو بها وباء على ما تعتقد!

اكتفت المرأة الجالسة بالنظر إليهما رغم عدم استطاعتها رؤية ملامحهما ودون التفوه بكلمة واحدة.

مرت سيارة ورائها وأعطت إشارة طويلة بمعنى أن تفسح الطريق.

جاهدت تلك السيدة قدمها على الوقوف مرة أخرى واستطاعـــــت حمل الأكياس.

حاولت جاهدة عدم التـرنح في مشيها لأن الكثير من رجال الشرطة تقبع في هذه المنطقة، فقد تلقى حتفها بسبب رصاصة غادرة على يد أنجاس.

بعض الأشخاص ينظرون إليها بخوف وفزع، وبعض السيدات النبيلات يتهامسن ويقهقهن، وهى تسير متجاهلة تلك الطعنات التي اعتادت على أخذها كل صباح وتكتفي بالابتسام وتحسِس بطنها المحة إليها.

لمحت بجانبها مقهى صغيْر، لكنه ملائــم لشرب قهوتها المهدئة، ملائــم أيضا للراحة القليلة من حيث جسدها وقلبها وسمعها.

دخلته وبدا مكتظ بالكثير من الناس ولا ترى سوى شخصين فقط من بني لونها.

تقدمت لطاولة نادل القهوة الأصهب وهو عبس تلقائيًا عنَد رؤيتها، اكتفت بالنظر إليه بعيونها الحادة ذات اللون البني التي تبعث الرهبة في قلوب كِل من يرى جمالها.

"لما يوجد الكثيُر من السود هذا الصباح؟، هـــــل نفذت الرصاصات أم الشرطة في إجازة اليوم؟"

تحدَث النادل ذو البشرْة البيضاء بسخرية واضحة، بالرغْم من أنه لا يوجد الآن ِسوى ثلاثة أشخاص.

"يبدو أنهم مشغولون بالقضاِء على عقوْل أمثالكم".

ردِت المرأة تلقائيًا وحملت في لكنتها سخرية أيضًا.

سمعت ضحكات من هذان الشخصان ذوي البشرة السوداء تدُل على السخرية من النادل بينما باقي من في المقهى اكتفى بالنظر!

إنزعَج النادل كثيرًا وأكتفى بك بالسـك علـى أسنانه مثل وحش ضاري يريد الفتَك بفريسته.

"عودوا من حيث جئتم، إلى حيث تنتمون".

صرخ النادْل بغضب وزفَر بحنْق محاولاً إخماد النار التي تأججـــت بداخله من الإحراج الذى لحقه.

"أرجعونا من حيث أخذتمونا غضبًا، أليس حلا جيدًا؟"

تحدثت هي بهدوِء على عكس المتوقع، ُمثبتة له بأنهم المستعبدين.

اكتفى النادْل بالتزام بعَدما لقيه من عارٍ وإحراج من شخصية المرأة القوية وطلاقتها في اِلرد وسرعْة بديهتها.

سألها النادل عْن القهوة التي ُتفضلها فأجابت بثقة

- "قهوةٌ تشبهني لو سمحْت."

أعاَد النادل سؤاله مرًة أخرى وأجابته بنفِس الإجابة، جذا رجلُ متقدم في العمْر،أشيب الرأس وتقدَمَ نحو النادل وَطلب منه قهوة سادة والأخرى بالحليب، أعطى واحدة لتلك السيدة التي تريد قهوة تشبهها ومن ثم رِجع إلى طاولته والتزَم الصمت.

شَكرته تلك المرأة لتَفُهمِه إياها ومن ثم ذهبت لتلك الطاولة التي َتقبُع في الزاوية الصغيرة في المقهى، وأخذت معها جريدْة كانت أماَم النادل.

وقَعَ نظرها على أوِل عنواْن في هذه الجريدة "الشرطة الأمريكية تقضى على إرهابيون سود يثيروَن الشغب".

جلسْت وأمسكت قهوتها وبدأت فيَ سكب شلالاٍت من الدموع الحارة التي تتدفُق في نهِر حياتها،َ تمعنت جيدًا في القهوة مجددًا وبدأت ترى مزيدًا من ذكرياِت الطفولة المستعمرة.

ووجوه تتذكرُهم فقط عند النظر في كوبِ القهوة، ولطالما كانت تعاني من مرِض عمى الوجوه البعيد أو ما يسمى ب

.-Prosopagnosia

بدأت ترى وجه والدتها وهي تصرخ على هؤلاء الجنود بأن يتركوا زوجها، تتمسك في بزة أحدهم وتترجاه بأن يرحم ضعفها، يشدها أحدهم مْن ردائها المليِء بالشجِر والورود وتلك والحماماْت التي تعبُر عن الحرية التي لم تعرف لها طعمًا قط!

طلقة واحدة خرجت من تلك البندقية تناثرْت خلالها ِدماء والدها الطاهرة في أرجاء كوخهم الصغير، ولِتصاب هـــي بـــالرعب وتنشبْث في رداء والدتها.

ويا حسرتاه حين تتذكر صوت ذلك السوط وهو ينهاُل على ظهر والدتها وشقيقها الأكبر دون شفقة أو رحمة، هى تشعر بألمه في قلبها إلى الآن.

تتذكر حين كانت صغيرة مكبلة بالقيود مع أفراد مـن جماعتهـا، يقذفون إلى داخل تلك السفينة المتوجهْة إلى بلاد العنصرية والهمْج.

حين لم تفهم تلك الجملة التي تفوه بها جدها.

"باربرة، كافحي مْع جماعتك، كوني مثل القهوة".

ومن ثم انتهى كل شيء ولم تسمْع منه جملة أخرى أو شيء يهون عليها جل أمرها.

وتتوالى الأيـــام، وتصبح خادمة في أحِد البيوت الأرستقراطية لعائلة من الدرجة النبيلة، تتعرض للإهانة مرات عديـدة، وإلى المضايقات الجنسية مرات أخرى.

يحرر السيد رقبتها بعد سنواٍت من الخدمة والعمل الشاق وبعد أن أصبحت في ريعان شبابها ومستعدة للزواج، زوّجها سيدها عامـــــــــل الحديقة لديه وهو شاب أسود في مثِل عمرها.

اسـتدان ذلـك الشاب الكثير من أجل شراء بيـت يضـمهم، بعد أن ترك العمل كعامل حديقة وتوجه إلى ورشة لتصليح المحركات.

بعد سنواتوسنوات من انتظار أنامل صغيرة وناعمة حبلت باربرة وأخذت حياتها تضحك لها من جديد، لكن الأمر لم يدُم، إذ أخذ من كان لهم مال عند زوجها الذي يسعى ليل نهار في توفير اللقمة الهنيئة لهم والشراب الحلو المستساغ، سجنه ورفع قضية عليه بالرغم من أنه سدد لهم المبلغ!

أخذت هي تدور في المحاكم، تدافع عن زوجها المظلوم وتؤازره، تعمل من جديد لتوفير مال يفكُ أسر زوجها ويعيده إليها قبل ولادة فلذة كبدها.

ولكن كل مـا قالــه القاضي لها أثناء الجلسة الأخيرة "سيمحى أثركم من الحياة يومًا ما"

أخذت تفكر حينها، كيف تدعى أمريكا بلد الديموقراطية والحرية وهي لا تفقه شيئا عنها؟!

ماذا تفعل تلك السيدة التي تمسك في يدها مشعلا؟ هل تخبرنا عن الحرية أم تخبرنا أن أرواحنا ستزهق إلى السماء أو إلى حيث تشير.

ماذا تفعل تلك المنظمات الحقوقية التي تساعد فقط على قمع الحريات .

ماذا فعل قانون إلغاءِ العبودية بحقنا، هـــــل ما زال يخطط لإبادتنا في السر؟!

أخذت تتذكر قهوتها اللذيذة الذي اعتادت إحتسائها كل صباح أمام شرفتها الزرقاء الباهتة، ولكن بعد مـا آلت الأمور إلى تلك الحال تغيرت تلك القهوة إلى قهوة تشبه كل جوانب حياتها أو بالأصح رمقه!

وفي ثبج ذاك الأمـــر تذكرت نظرات جيرانها لها بعَد أن سجن زوجها فجأة، هي الآن زوجة مجرم بالنسبة لهم، هي الآن سيدة وحيدة لايعرفها أحـد، وكما قـالوا فإنُ كَل إنسان يأخذ نصيبُه من اسمه، وها هي باربرة بمعنى الغربية المنسية، كانوا يلقون اللومَ عليها لأنهـــا تدافع عن حقها ويقنعونها بأنها تسلك طريق الضلالـــــة، لكن تلك المرأة القوية حبذت السير على أضاليلها عن السير في طريقهم الصحيحة.

لقد سئمت هذا الأمر، وقررت رؤية ملامحها فقط، تلك الملامح المخيفة التي تبـث الرعـب في قلوب كل من يراها، دون النظر إلى ما وراء تلك الملامح الحكم الطاغي عليها!

لذلك لا تثق برأي أحد، ثق برأيك في وطن لا يعرف بدون الحرية.

عادت باربرة إلى واقعها، بعد أن استغرقها التفكير مدة طويلة، لا تعرف كم من الساعاتِ استغرقتُ بالتحديد، لكن يكفي أنها أطلقت العنانَ لمشاعرها ورمقِ أضاليلها المشوهة في كوبِ قهوة ظنت وأنه الملائـــم لذلك.

انتبهت إلى أن جموع من كان في المقهى ينظر إليها ويراقبها في شـــك وريبة، بالتأكيد ظن البعضُ أنها مشعوذة أو ساحرة تحضّر عمـلا لأحـد مـــا في كوب القهوة، وظن الآخـــر أنها مجنونة تحدقُ في القهوة لمدةٍ طويلة أو مريضة نفسيًا تبكي بدون سببْ، والقليلينَ فقط ينظرونَ بحسن نية.

في هذه اللحظة أطلقتْ المرأة انينًا طويلا،بينما حطمتِ كوبَ القهوة على تلك الطاولة، هي تبدو على وشكِ الولادة والمخاضُ آتها.

أخذ كل من في المقهى يسألها عَما بهـا، فتجيبهم أنهاعلى وشكِ الـولادة، فيتذمرالبعض والبعضُ الآخر لا يعرفُ ماذا يفعل وكيف لها أن تلدُ هنا؟

تقدمت إمرأة قصيرة في أوائل العقدِ الرابع، ذات جسد ممتلئ وبشرةٌ بيضاء صافية وشعر أسود قصير يشبهُ ليلة كاحلُة السواد.

"أنا ممرضة، يمكنني أن أساعدها".

تحدثت تلك السيدة بينما أمسكت بيد باربرة المُرتعشة وساعدتها على النهوض،سألتها أين تسكن وهل من أحدٍ معها فأجابتها أين تسكن وتجاهلت ذاك السؤال الذي يعتصر جسدها وجعًا.

بالفعل ذهبت الممرضة بها إلى حيث تسكن،أخذت في التحدث معها لتهوين الأمر عليها، كما أخبرتها بأنها تدعى شاهندا

وأنها أيضًا تعاني من التنمر بسبب بدانتها.ويجب أن يصبر الإنسان ويثق بربه ثم بنفسه ثم بالعالم رغم إنه موحش وقاسي القلب.

أومئت المرأة السوداء برأسها تفهمًا لشاهندا ومْن ثم عادت لذكر وجعها الذي بات على حافة أوتار الحياة، ليعزف مقطوعة جديدة لأمل جديد.

أخبرتها الممرضة أن تغمْض عينيها وتستريح لتسهيل الطلِق وبالتـــالي عملية الـولادة، أغمضت باربرة عينها وتخيلت أنها حـرة، منصهرة في معدِن العالم الصلب، لهـــا شأْن ولها حقوق كما عليها واجبات، تخيلت وليفها بجانبها وبين رسغيه صغيرهم المنتظر منذ عقود طويلة وأحلام وأماني بعيدة الأجل..

تخيلت في النهاية عالمها بمنظر أفضل وشكلٍ أجمل.

ولكن كَم هو مؤلم أننا لا نستطيْع أن نغير بخيالنا واقعنا المرير!

"فليبارك الرب، إنها فتاة جميلة مثل والدتها".

قطع أحبال تفكير باربرة صوت شاهندا الخشن وصوت مناغاة من بين يديها، أخذتها وبدأت في التحديق بهـا، إنهـا شديدة السمار فقط وعيناها بلون البندق ولديها زغب في كثير مـن الأماكن، إذن ما خطر على بـال والدتها هو اسم (جورجيا)

ابتسمت الوالدة تلقائيًا لتظهر أسنانها ناصعة البياض كنجوم متوهجة في ليلة عاصفة البرودة، ولتبتسم شاهندا بالمقابل ثم تودع الأم وطفلتها ثم تترجل من المنزل الصغير المليء بالحنان و الألم.

في وقت الغروب.

أقدام همجية تركل ذاك الباب المتصدع ليثرب عليه، وتتعـــالى أصوات غاضبة تأمر من بالداخل بالخروج وتسليم نفسه، فتحت تلك المرأة التـي ترتدي تنورة رمادية طويلة وعليها ثوب قطني واسع، قاتم السواد.

ركلها أحـد هـؤلاء للداخل، ودلف ورائه بقيـة الرجال أو بالأصح أشباه الرجال، لم تستطع سؤاله عْن سبب ما يحدث ولكن تركت طفلتها تتسائل نيابة عنها.

يد متسلطة، سارقة، ملوثة بدماء أحـد يبكي داخل زنزانته أو يدعو عليه وعلى أمثاله أمسكت تلك التي لا تفقه شـــــيء، تلك المبرئة من ذنب لم ترتكبه لينفجر بركان الغضب عند والدتها وتركض مسرعة لتنتشل الصغيرة بين يد عديم الرحمة والضمير.

لكن لا فرصة لها أن ترى صغيرتها التي بدأت بالبكاء لأنهـا جائعة إلى الحرية، وأتؤازرها في محنتها، فقد انهال أحد رجال الشرطة بالضرب المبرح على رأسها بالأخمص لتغلق عينها تدريجيا ولترقد في بركِة الدماء النابعة منها.

تم ترك المرأة في المنزل عسى أن تكون في غيبوبتها الأبدية وليتَم تنفيذ طلب ذاك الرجل من المقهى الذي قدَم بـــــلاغ بوجود امرأة تثير القلق والشغب!

- "ماذا سيحدث للطفلة سيدي؟"

صوت الشرطي الصغير يأتي من خلف الجدران وهو يحمل تلك الطفلة التي تعبث بسعادة في شارته.

"ستذهب للأحداث، لا تنسى أنها من نفس اللون".

تحدث القائد بحدة وهو يرتشف من كوب القهوة الذي ما زال يغلي في قلوب من أحبوه ويذيقهم مرارته.

إنها النهاية لهذا الطريق المفتوح الذي لا يعرف له نهاية ولا بداية، وكما قلنا يمكنك أن تنتهي من الطريق الذي بدأت منه.

لن َتنفعك الأوراق والحقيبة، إيمانك وعقيدتك هو منجيك الوحيد.

العنصرية مـا زالت مستمرة، العـالم نائم على أحـلام اليقظة، كما نحن نائمون على أحلام غيرنا، أغلق دفتَرك واخلد للنوم.

أغلق الباب، وسكَتت الأفواه، وتناست الذاكرة، وسكبت القهوة.

لحظة واحدة، لم انته بعد!

نحُن نفضل الأبيض عن الأسود في كل مجالات الحياة.

نحن نجعل الأسود للخوف والتخويف، والأبيض للأمن والأمان.

لذلك، العالم يضجُ بالخوفِ والهلع إلى الآن

وأنَت سبب في ذلك.

كافح أنت أيضًا مع جماعتك، وكن مع العالم!

اختر أنت النهاية عزيزي القارئ.

اجعل مشاِعرك هي من تحرك خيالك.

وتذكر أن الغموض هو طابــع هذه القصة القصيرة مثَل هذا الواقِع تمامًا ومثَل أشياء كثيرة، قد تكون تجهلها وقد تكون قد عرفتها وتجاهلتها!

كُن أبيضــا أو أسـودا، كن شـرقيا أو غربيـا، كن عربيـا أو أعجمي، كن مسلما أو مسيحيا أو يهوديا، لكن لا تكن عنصريًا، لا تكن ضد العالم، لا تكن ضد فطرتك السامية المعتدلة الشريفة.

الخلاصة لا تكن ضد نفسك.

أنا أعرف أنك تتفهم هذه القضية المريرة، أنا أعرف أنك معي حتى وإن كنا مختلفين، فنحن إخوة، وما زلنا إخوة، وسنزال إخوة، لا فرق بيننـــا فنحن جميعًا من نفس واحدة.

نحنُ جميعًا أحرار وسنبقى روحًا طليقة كما جئنا إلى هذا العالم وكما خلقنا بارئنا. وسيظل الأمـــــل قابع في نُفوسنا لنغيرَ ذلك العالم، ونلون الكون من جديد ونرسم الابتسامة في وجوهنا إلى يوم الوعيد.

نعم، نحن البشر جميعنا بدون تفرقة.

تذكير: قــال رسولُ الله صلى الله عليه وآلــه وسلم: "لا فرَق بين أبيض وأسود إلا بالتقوى."

وفي حديثٍ آخر لا فرق بين أعجمي وعربي

وأظن أن هذا الحديث يشرح للعالمُ كل شيء.

تم بحمد الله